

ملاحظات منهجية حول الدراسات الإجتماعية في الوطن العربي

الدكتور محمد عبد المولى (تونس)

اقتصر هذا المعهد في البداية على البحث في العلوم الجنائية كعلم الجريمة وعلم كشف الجريمة ، وعلم العقاب ليصبح بعد ذلك سنة 1960 « المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية » . وانطلاقا من هذا التاريخ أصبح المعهد يعنى بالعلوم الاجتماعية بمعناها المعروف ، ونعني بذلك علم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم الأنثروبولوجيا الاجتماعية (1) .

— وتأسست ، حوالي سنة 1962 ، دائرة لعلم الاجتماع في كلية الآداب والعلوم الانسانية بالجامعة اللبنانية ويمكن للطلاب أن يتخرج منها بالاجازة في علم الاجتماع .

— وفي تونس تأسس فرع خاص بالعلوم الاجتماعية سنة 1964 ... كما تأسس مركز للبحوث الاجتماعية الى جانب مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية (C.E.R.E.S.) ومن المعلوم أن هذا المركز يضم الى جانب البحوث الاجتماعية شعبا عديدة مثل شعبة الالسنية والحقوق والاقتصاد والديمغرافيا . ومن ميزة هذا المركز — الذي كان يتلقى اعانة مالية من مؤسسة فورد الأميركية حتى سنة 1971 — أنه يهتم بالبحوث الميدانية وخاصة في الحقول الاجتماعية والديمغرافية (2) .

ان مجتمعاتنا العربية الاسلامية ، والمجتمع المغربي جزء منها ، في اشد الحاجة الى دراسات اجتماعية لجميع مشاكلها ومؤسساتها ونظمها وتطاعات حياتها الاقتصادية والسياسية والثقافية ...

فالبحث العلمي الاجتماعي يعد في الواقع تقليدا جديدا في مجتمعنا ، وليس للعرب فيه اسهام حديث يستحق الذكر . هذا اذا استثنينا العلامة العربي عبد الرحمان بن خلدون (1332 — 1406) الذي كرسنا له ، خارج هذا العرض بحثا خاصا .

فلم يصل ، الى علمنا ، أن أحد الباحثين العرب تمكن من ربط تراثنا العلمي العربي في حقل الدراسات الاجتماعية والسياسية بالحركات الفكرية والعلمية في العالم ، وخاصة ربط هذا التراث بحقول علم الاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعي ، والانثروبولوجية الاجتماعية ..

ان محاولات اجراء البحوث الميدانية والعلمية في حقول علم الاجتماع (سوسولوجيا) وعلم النفس الاجتماعي ، في المجتمع العربي ، ما تزال في بدايتها ..

— فالبنسبة لجمهورية مصر العربية ، فإن البحث الاجتماعي ما زال في بداية المحاولة وليس له جذور راسخة ... ويعتبر انشاء المعهد القومي للبحوث الجنائية عام 1956 نقطة الانطلاق في هذا المجال :

(1) انظر : الدراسات الاجتماعية . وتطوير المجتمع (1971 — ص 95 — 100) ص 95 و 96 .

(2) انظر مشاريع البحث العلمي في نشرتين خاصتين (1969 و 1970) :
1) Programme des Travaux de Recherche - (I.P.S.E.J.E.S.), 23, rue d'Espagne.
2) Programme des Travaux de Recherche - 1970 (C.E.R.E.S.), 23, rue d'Espagne.

— ومنذ سنوات قليلة تأسست جمعية جزائرية للدراسات الديمغرافية والاقتصادية والاجتماعية Aardes ، وهي تقوم بتنفيذ طلبات وزارة التخطيط والاقتصاد الوطني . كما أكد لي ذلك مديرها — وأعمال هذه الجمعية لا تعدو أن تكون جمع المعلومات الحيوية واحصاءها وفرزها .. حول ناحية معينة أو موضوع معين كالملكية الخاصة ، أو الاستهلاك العائلي ، أو احصاءات تتعلق بالسكان .. الخ بحيث ليس هنا بحوث اجتماعية بالمعنى العلمي للكلمة .

— وفي المغرب الأقصى انشئ معهد العلوم الاجتماعية ثم الحق بكلية الآداب .

أما دائرة العلوم الاجتماعية في جامعة الجزائر، فبحكم حداثة سنها لا اشعاع علمي لها .. ربما ذلك راجع الى قلة الباحثين والأساتذة الأكفاء .. وفي سنة 1967 تأسس قسم خاص يعلم الاجتماع في جامعة بغداد .

هذه هي ، باختصار محاولات الاعتناء بالبحوث الاجتماعية ، وهي تجربة لا تزال تلتبس طريقها الى النمو والأصالة والإبداع .

ولا يسعنا امامها الا ان نبدي الملاحظات المنهجية التالية :

1 — ان اللغة الاساسية لتدريس العلوم الاجتماعية والبحث العلمي الاجتماعي ، في كليات ومعاهد الشرق العربي هي اللغة العربية .. الى جانب لغات اجنبية مساعدة .

أما اقطار المغرب العربي ، فان الفرنسية هي المعتادة كأساس للتدريس والبحث في حقول الدراسات الاجتماعية ، نستثني من ذلك دائرة العلوم الاجتماعية بجامعة الجزائر التي قطعت خطوات موفقة في تعريب العلوم الاجتماعية . ومن المؤلفون ان نلاحظ ان جل الباحثين في علم السوسولوجيا بتونس والمغرب الأقصى ، عندهم جهل يكاد يكون تاما باللغة الوطنية والتراث الشعبي ، وبالتالي بلغة المجتمع ورموزه وتاريخه ...

2 — اقتصر الجيل الاول من الباحثين واساتذة علم الاجتماع — وكان تكوينهم في الغالب فلسفيا — على تدريس علم الاجتماع (سوسولوجيا) ، على غرار التقاليد الفرنسية التي تهتم بشديد الاهتمام بالمقارنة بين الأفكار والمدارس السوسولوجية ، مقارنة فتتفر الى الدراسات الميدانية والواقعية ... (وانصب جزء كبير من اهتمامهم على شرح اعمال المدرسة الدوركايمة (1) ابتداء من مؤسسها اميل دوركيم ومرورا بأعمال غوكوني (2) عن المسؤولية وسلاستين بوتلي (3) في كتاباته عن المساواة : والديمقراطية امام العلم وريسي هيسر (Hubert) (1885 — 1954) في قواعد السلطة في الديمقراطية .. ودراسات ليفي بريل الانثروبولوجية ... الخ .

وقد اقتصر هؤلاء الأساتذة والباحثون الرواد : كما فعل زملاؤهم في أمريكا اللاتينية على النقل دون الفحص والتفسير والتأصيل . وهذا يعني ان هؤلاء جميعا لم يهتموا بربط النظريات الاجتماعية بالظروف الاقتصادية والسياسية التي نشأت وترعرعت في ظلها، فلا يمكن بأية حال من الأحوال ان نفهم مدرسة اميل دود كيم الا في ضوء أوغست كونت (4) الذي هو الآخر لن يفهم في معزل عن ظسروف العصر الذي عاشه : مثلا الصراع بين البورجوازية والطبقات الكادحة على مستوى حركة المجتمع ، وبين الايجابية الوضعية (Positivisme) والاشتراكية على مستوى الصراع الايديولوجي .

ان الدراسات داخل هذا الاطار تساعدنا كثيرا على فهم أوغست كونت وبالتالي اميل دوركيم .

ويقول كاتب معاصر في هذا الصدد : « عجز هذا الجيل عن تقديم منظور سوسولوجي للمعرفة يربط بين الفكر وبين البناء الاجتماعي برباط وثيق ، وبالتالي قدم الفكر السوسيكولوجي الفرنسي معزولا عن جذوره ، وبكل ما يتضمنه من تحيزات ايديولوجية صارخة ، لم يكن الغرض منها سوى الحفاظ على مصالح الطبقة البورجوازية الأوروبية ، وأهم هذه التحيزات ضرورة الفصل بين القيم والواقع ، ومنع

(1) Emile Durkheim (1858-1917)

(2) Paul Fauconnet (1874-1938)

(3) Célestin Bouglé

(4) Auguste Comte (1793-1857)

الباحث الاجتماعي من تقييم الظواهر الاجتماعية او الحكم عليها نزولا عن رغبة « موضوعية » العلم و « حياده » .

3 - وبعد سنوات جاء جيل من الاساتذة والباحثين العرب فأدخلوا ، لأول مرة ، في البيئة العلمية العربية مناهج وطرائق البحث الاجتماعية الميداني ، وشرعوا في تطبيقها على نطاق محدود جدا لا يتعدى الدراسات والبحوث ، للحصول على درجة الدكتوراه او في صورة اعداد بحوث جزئية لدراسة موضوعات خاصة .

ومن الملاحظ ، في هذه المرحلة بالذات ، تأثير الباحثين والاساتذة العرب ، او جلهم على الأقل ، بالمناهج الغربية وبأدوات البحث المستعملة في الغرب الرأسمالي وكان من الصعب ان تتوفر الفطنة النظرية لدى الباحث الاجتماعي العربي حتى يكشف عن الجذور الايديولوجية التي يزخر بها علم الاجتماع .

ولم يكن من الهين ، في هذه المرحلة الانتقالية على الباحثين العرب هضم ما درسوه في الشرق او في الغرب ، والاستقلال بوضع طرائق علمية وعلم اجتماع عربي - اسلامي له أساليبه وطرائقه لدراسة واقع المجتمعات العربية - الاسلامية ، بينانها وطبقاتها الاجتماعية ومشاكلها ومؤسساتها ، وفي تحليل هذا الواقع بما احتوى عليه من قيم غنية خالدة ، الى جانب ما تضمنه من فوضى وتناقض ، صنعت بعضها ، عصور الانحطاط والظلام ، وصنع بعضها الآخر التخلف الفكري والمادي طوال الاحتلال الاستعماري في العصر الحديث .

4 - ان استعمار المناهج المستوردة في دراسة المجتمعات العربية الاسلامية : دون نظر الى طبيعتها الخاصة وظروفها وتطورها التاريخي والسياسي والاقتصادي ، ورموزها وحركيتها ، هو خطأ منهجي في منتهى الخطورة . انه مصدر سوء التفاهم والخلط الذي كثيرا ما يحدث في استعمال المناهج العلمية في غير ما وضعت له . واذ عهد الباحثون الاجانب ، الى درامة المجتمعات العربية الاسلامية ، رغم جهلهم

الظاهر بطبيعتها ورموزها ولغتها ، وحركيتها وتفكيرها الديني ، - استعملوا طرائق منهجية قد تكون صالحة لدراسة مجتمعاتهم ، والتطور التاريخي والاجتماعي والفكري لها - فاذا ما تهافت الباحثون العرب وخاصة في المغرب العربي - الا من رحم ربك - على هذه الدراسات التي وضعها الاجانب عن المجتمع العربي وتاريخه ، فانهم يفقدون بذلك موضوعية بحثهم ويرتكبون بذلك ، خطأ منهجيا ، خطير العواقب (1) .

لا بد اذن ، والحالة هذه ، من اعادة النظر في دراسات الأروبيين والاجانب من مستشرقين ومن دار في فلهم من اساتذة ودكاترة ، ان عدم ثقتنا بانفسنا وتخلفنا العلمي والتكنولوجي ، والاقتصادي قد حجب الينا كل ما هو اجنبي « الى حد ان هناك جماعات تعتقد ، كما اكد علال الفاسي ، ان الخير كل الخير هو في تقليد اوروبا الغربية ، وامريكا السكسونية ، وروسيا السلافية ، والمانيا الجرمانية » .

5 - ان التقاليد الفرنسية في علم الاجتماع ، جعلت جل الدراسات الاجتماعية مبنية على مبدأ الحياد وتعلمة الموضوعية ، وهذا الموقف لا يمكن ان يفسر الا بتطور المجتمع الأروبي نفسه . ذلك ان المجتمعات الأروبية - والمجتمع الفرنسي جزء منها ، - قد تأثرت بمؤثرات وحفت بها ملامسات ، ما عاشتها مجتمعات العالم الثالث ، والمجتمعات العربية الاسلامية خاصة : مرت هذه المجتمعات (الغربية الرأسمالية) بعصور الاقطاع والجهل والظلام ، الى عصور الثورات التي عصفت وما تزال : فمن ثورة فكرية في القرن السابع عشر ، الى ثورة سياسية في القرن الثامن عشر ، الى ثورة اقتصادية في القرن التاسع عشر الى ثورة اجتماعية في بداية القرن العشرين كل هذه الثورات بمذاهبها المختلفة وملابساتها الخاصة جعلت للمجتمع الأروبي تركيبات وانظمة خاصة بها ، وبالتالي تفكيرا اجتماعيا وسوسولوجيا خاصا . ولا يتسع المجال هنا لعرض تطور الفكر الاجتماعي في اوروبا (2) : بل نشير فقط الى ان علم الاجتماع قد ولد بصفة رسمية في اوروبا في القرن التاسع عشر ، (وفي الوطن العربي في القرن الرابع عشر على يد العلامة

(1) انظر بحثنا عن التحليل العلمي الشامل ... اللسان العربي - المجلد السابع الجزء الاول - يناير 1970 الرباط . ص . 342 - 349 .

(2) انظر كتابا مبسوطا لبوطول وهو معرب :

Bouthoul, Histoire de la Sociologie, Que sais-je ? - PUF, Paris.

بعد ، أساس علم الاجتماع الفرنسي . لقد وصلت مقومات فكرة علم الإنسان هذه الى سان سيمون ، عبر الفلاسفة المثاليين والأطباء . واحد هؤلاء الأطباء هو الدكتور بيردان (Dr Burdin) الذي أوحى الى سان سيمون بأن يلقب علم الاجتماع بعلم ايجابي - وضعي ، وكأنه علم الحياة العضوية (Physiologie) أما أوغست كونت ، فابتدا اول الامر بتسمية علم الطبيعة الاجتماعي كما فعل سان سيمون قبله ، والقصد من هذه التسمية ، هو المناداة بقيام علم جديد يكون على غرار علم الموجودات الطبيعية (Sciences naturelles) غايته دراسة الأحداث الاجتماع وتجانس مع بقية اقسام الطبيعة . وفي سنة 1835 تمكن الفلكي البلجيكي كاتلي من نشر تأليف عنوانه : « الإنسان وتطور ملكاته » او في سبيل فيزياء اجتماعية ، ثم اعاد نشره سنة 1860 تحت عنوان « فيزياء اجتماعية » (2) (Physique sociale) كانت منهجية كاتلي في كتابه الآنف الذكر تعتمد على معطيات مختلفة ديمغرافية واحصائية في دراسة الجريمة مثلا . وقد اتضح له من خلال البحث والملاحظة ان القوانين التي تظهر في المجتمع ، تخضع لنفس النظام الذي تخضع له القوانين في الطبيعة . وقد توصل عبد الرحمان ابن خلدون ، قبل كاتلي بقرون ، الى نفس الملاحظة ، اذ قال : « فشان المجتمع في ذلك (النواميس والعلل) شان عالم الطبيعة وناموس العلة وأحديهما (3) .

أما أوغست كونت فكان ينتهج طرائق مغايرة ، وهي ان هناك انقطاعا بين علوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية ، فبالإضافة الى كراهيته الشديدة للأحصاءات وحساب الاحتمالات ، رفض أن يسمى هذا العلم الجديد بالفيزياء الاجتماعية واختار له أخيرا اسما آخر هو علم الاجتماع (سوسولوجيا) ، وذلك لاسباب شخصية بينها في كتابه : « دروس في الفلسفة الايجابية » (4) .

عبد الرحمان ابن خلدون) ، لكن لا بد من الرجوع الى القرن السادس عشر لنعرف « أن أزمة المؤسسات السياسية والدينية والتربوية قد أدت الى خلق علم اجتماعي لم ينضج بعد ، ولكنه كان نقديا على أية حال ، للنظام السائد والامكار التي تؤيده . مثلا : قام رابلي ، قبل الثورة الفرنسية (1789) بنقد اجتماعي كما قام مونتاني (Montaigne) بتحليل عملية جعل الثقافة والعلم والتربية ، لائكية ، يعني ان التربية ، بعد أن كانت جهازا تابعا للكنيسة ، تصبح شيئا فشيئا جهازا تابعا للدولة . وقد قال ما معناه : « أن العلاقة بين الكنيسة والدولة او العلاقات بين الكنائس وجميع اشكال الدولة في أوروبا ، وعلاقات الكنائس بالمدارس والمؤسسات ، وكذلك علاقة العائلة بالكنيسة ... يجب ان تنقلب رأسا على عقب وذلك حسب عملية انتقال لها جميع خصائص الزلازل الأرضية (او السماوية ؟) . ان هذا التحليل والموقف الانفجاري لا يعدو أن يكون ، في ذلك الوقت ، محاولات انتقادية اشبه ما تكون بالأدب الساخر . نظرا لفقدان الكشوف الميدانية والاحصاءات .. (1)

6 - ومن المؤلفين ، في تاريخ الفكر الاجتماعي الحديث أن علم السوسولوجيا قد ولد في نفس الوقت الذي اخترع له أوغست كونت (1798 - 1857) هذا الاسم (Sociologie) في أغلب الأحيان ينسب ان هذه التسمية قد وضعت كرد مضاد لمؤسس آخر وهو كاتلي (Quetelet) عندما كان أوغست كونت سكرتيرا خاصا لهنري سان سيمون (H. de St Simon) (1760 - 1825) الذي استوحى « فكرة علم الإنسان » من كتاب دائرة المعارف ، ولا شك ، أن لهم أهمية فائقة في عصر سان سيمون : كانوا اول من عمل على جمع العلوم في مؤلف واحد ، بعد ما أكدوا وحدة المعارف الاجتماعية ، ثم توصلوا الى وجوب فصل النظرية عن الواقع ، وهذا الفصل أصبح ، فيما

(1) انظر كتاب :

Clefs pour la Sociologie, Seghers, Paris 1971 (par Georges Lapassade et René Lourau), p. 25

Sur l'homme et le développement de ses facultés, ou essai de physique sociale. (2)

انظر : المقدمة (في النصوص الفلسفية المبصرة) لكمال اليازجي . ص : 408 (3)

الجزء الرابع ، الدرس 47 . ص : 252 (4)